الدراما في التربية ... المخيلة وفضاء الحرية

وسيم الكردي

بات الاهتمام بالدراما كموضوع بحد ذاته، وبالدراما كسياق لتعلم موضوعات أخرى، يشغلان حيزاً مهماً لدى العاملين في الحقل التربوي في بلادنا، صحيح أنه لم يترسخ بعد، ولكن هذا الاهتمام يشير إلى رغبة العاملين في هذا الحقل في التعرّف عليه أكثر، وأحياناً محاولة إيجاد صيغ لتفعيله من قبل معلمين في مدارسهم. إن التقاط هذا الاهتمام ضروري، وإن بدا في بعض الأحيان مرتبكاً وبرانيًّا، ولكن البدايات دائماً تأتي متعثرة، وتتلمس طريقها. وإذا ما بنينا على الرغبة المثابرة والاستكشاف، فإننا سنصل إلى تطوير تجارب وتعميق مفاهيم في هذا الحقل.

تبدو الدراما في سياقات فعلها فعلاً يستكشف الحياة ويفتح فضاء للتعبير عنها من قبل الأفراد المشتركين فيها، عبر تفاعل متخيل يختبر الحياة وعلائقها. ولكي يبدو أي عمل من هذا النوع ذا جدوى، فإنه يتطلب محاورته بعمق، وهذا يتطلب أيضاً تفاعلَ مكونات عديدة؛ التجريب الإنساني الذاتي المباشرة، واستكشاف الروابط والعلائق ما بين المنتج الثقافي تاريخياً وما يرتبط بذلك من أسئلة ينتجها العصر الذي نحيا فيه، وأيضاً التفاعل مع ما تنتجه البشرية في ثقافاتها المختلفة.

ويأتي كتاب **دراما الحياة .. مقاربات في توظيف الدراما في التعليم** ليقدم تجارب آتية من ثقافات أخرى، ولكنها تتقاطع أيضاً مع التجريب المباشر، وكذلك العلائق بالتاريخ. إذن، فهذه تجارب تتضمن في ثناياها توصيفاً وقراءة واستقراء لما تمَّ، ولما يمكن أن يتمَّ أيضاً. إننا نقدم هذه التجارب كي تقدم لنا أنواعاً من المقاربة، نحاورها، فتقدح أسئلة جديدة، وتلمع في مخيلتنا أفكار نود تجريبها مع طلبتنا.

فهذا كتاب يتضمن ستة مقترحات تدريسية في مجال توظيف الدراما في التعليم، كما تتصدر هذه المخططات دراسة نظرية في العلاقة بين خطابات التحليل النفسي وتوظيف الدراما والمسرح في التربية، هذه المخططات الستة لأساتذة لهم تجربة طويلة؛ سواء في مجال العمل مع الأطفال أم مع المدرسين. وهذه المخططات، كما ستلاحظون، ليست مجرد أفكار منتظمة، بل هي أفكار وجدت سبيلها إلى الممارسة الفعلية، وبالتالي فهي تصدر عن معرفة جرَّبها ممارسوها فعلياً مع تلاميذ ومعلمين أيضاً.

أما المقالة السابعة، التي تأتي في مقدمة هذا الكتاب، فإنها تبدو مادة

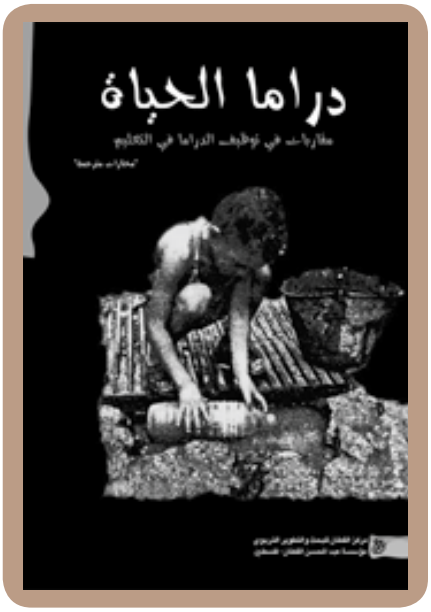

نظرية صعبة، وهي كذلك دون شك، ولكن اختيارها يقع ضمن إدراك يرى أن ما يجري في الدراما ليس مجرد فعل منبت عن الواقع والحقيقة يتطلع إلى تحقيق غايات تعليمية محددة، بل هو إدراك لطبيعة الدراما من حيث كونها على صلة وثيقة بالحياة بمختلف جوانبها وأبعادها، أو هي الحياة، ولعل التأني في قراءتها ومحاولة إدراك كنهها سيكون له أثر فعّال في طبيعة التفاعل مع المخططات التطبيقية التي يتضمنها الكتاب، فهي تقدم منطلقاً فكرياً يتيح لنا مساءلة المسألة من جذورها، فهي تركز على النفسي وما يترتب عليه من خطابات، إذن هي تشتغل على التعبير، والدراما في جوهرها تشتغل على التعبير. ويتخذ التعبير لدى البشر طرائق شتى، ويتخلق عبر سياقات تتبدل وتتغير، وإذا ما تلمسنا ذلك، فإنه بمقدورنا أن نشتغل على أنفسنا ومع تلامذتنا على ما هو جوهري، وهو التعبير، فالتعبير جوهر الحياة وجوهر التعلّم أيضاً.

فالانخراط في الفعل الدرامي في سياق تربوي ليس انخراطاً مجانياً أو مترفاً، ليس انخراطاً يتخذ من الدراما وسيلة تقنية برَّانية، بل إنه انخراط في فعل إنساني من الطراز الأول، فعل يربط هذا الفعل بصورة أو بأخرى بما يجري في الحياة، فيسائلها ويشتغل على نقدها وإعادة إنتاجها مرة أخرى، فهو مرتبط بمواقف إنسانية تتصل بوجود الإنسان في سياق محدد بالحياة، فيراها ويرى دوره، يرى إمكاناته ويشتغل على تعديلها أو تطويرها كي يكون ممكناً ممارسة دور فعّال ومؤثر في المجتمع الذي يعيش الفرد فيه.

ستلاحظون خلال القراءة أن هذه المخططات التدريسية تلتقط ما تشتغل عليه من الحياة الحقيقية في المجتمع الإنساني، وتبني اشتغالها عليه ضمن رؤية نقدية تنحاز للإنسان، تنحاز لمفاهيم الحرية والانعتاق ورفض الحرب

وإدانة الاحتلال؛ فهناك مخطط يتناول الحرب على العراق في العام 1991، وآخر يتناول تعامل بريطانيا مع مراكز اللاجئين إليها . . . إن الأفكار والقضايا التي يتم تأطيرها ضمن فعل درامي هنا تشتغل على ما يحدث في العالم اليوم، فمثلاً تقول مارغريت هيغنز في مخططها "أطفال وجنود في نابولي العام 1943": " . . . كنا نقوم بعملنا مع هؤلاء الأطفال في جيلان في وقت كانت فيه الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تعدان العدة لقتل الأطفال وآبائهم وأجدادهم وتشويههم في العراق"، وتلاحظون أيضاً أن هذه الموضوعات يتم اقتراحها ضمن تصور فني جمالي، يتخذ من تنمية الخيال وتعميق الرؤية والتأويل وتكوين الرموز وحلها مساراً له، فالعلاقة بين ما يُطرح من قضايا وبين الأشكال الجمالية التي تتم فيها هي علاقة عضوية متداخلة، فلا تغدو الدراما أو أساليب المسرح مجرد إطار خارجي، بل تدخل في صلب العملية برمتها.

وحينما اخترت هذه المواد، فإنني لم أخترها فقط بناء على قراءتها، بل لأنني عرفت أصحابها؛ سواء عبر الانخراط في برامج تطبيقية معهم في بعض هذه المقترحات تحديداً أم من خلال المشاركة في أنشطة قاموا بتنفيذها ضمن مؤتمرات خاصة بالدراما في التربية، ولذلك، فإن حساً شخصياً مباشراً كان له دور في الاختيار، فهو الذي أتاح لي فرصة استكشاف هذه المخططات التدريسية ضمن سياق تطبيقها.

ولكي لا نتحول إلى مجرد متلقين لمادة منجزة، أو كي لا نتحول إلى مجرد ناسخين لتجربة، فإن علينا أن ننظر في هذه المخططات التدريسية على نحو مختلف، فهي ليست وصفة نقوم باحتذائها، بل هي تجربة لها ما لها وعليها ما عليها، ولكي تناسبنا، فإن علينا قراءتها ضمن أفق التنوع والاختلاف وضمن مجال الخصوصية والفرادة، إن هذه التجارب وما فيها من مقاربات تربوية غير تقليدية، مثيرة وجليّة في مواقفها الإنسانية، تقتضي منا محاورتها، عبر التعرف عليها وعلى خلفياتها وعلى مغازيها وعلى ما تتطلع إليه، ضمن هذا التصور فقط، يمكن لها أن تكون تجربة إنسانية ذات مغزى وفعالة بالنسبة إلينا، أما إذا اشتغلنا على نسخها وتطبيقها حرفياً، فإننا سننزعها من سياقات إنتاجها وسنسطّحها، وهذا ما لا تتوخاه فكرة إصدار هذا الكتاب. فكما تقول تاغ ماكنتغارت في مخططها "الأطفال العراقيون يستطيعون التحدث عن أنفسهم": "إن تخطيط سلسلة من الدروس يشبه تخطيط رحلة استكشافية"، وهذا أيضاً ما يمكن للمعلمين أن يستلهموه من هذه المخططات، فيسيرون أيضاً في رحلة استكشافية فيها من الغموض والاستكشاف ما يمنحها إمكانية البحث والتشويق والتعبير. فهذه المخططات ليست مواد جاهزة لنتائج جاهزة، فرحلة الاستكشاف الدرامي تمتلئ بعناصر الرحلة بكل ما فيها من توقعات ومفاجآت أيضاً.

إننا نود في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي أن نعبر عن امتناننا وتقديرنا للرابطة الوطنية لتعليم الدراما (The Nation Association for The Teaching of Drama - NATD) ومجلتها الدورية (The Journal for Drama in Education)، ونخص بالتقدير كل من وردت أعمالهم مترجمة بين دفتي هذا الكتاب، وهم: بيل روبر (Bill Roper)، وطوني غريدي (Tony Grady)، وماغي هلسون (Maggie Hulson)، وتاغ ماكنتغارت (Tag McEntegart)، ومارغريت هيغنز (Margaret Higgins)، وغاي وليامز (Guy Williams)، فقد أبدوا جميعاً حماسة لهذا المشروع وموافقة غير مترددة.

وإذ نضع هذا الكتاب بين يدي المعلمين، فإننا نأمل أن يجدوا فيه مادة معرفية وتوجهات تطبيقية يحاورونها بخبراتهم وتجاربهم، وتمكنهم من فتح فضاءات جديدة في عملهم، تستلهم تجارب الآخرين وتغدو ملهمة لآخرين أيضاً.

وسيم الكردي

من مساق "الدراما والكتابة والقص".